نشأة اللغة العربية ومصادرها

إبراهيم حركات
جامعة محمد الخامس – الرباط

اللغة العربية من اللغات السامية التي نشأت فيما نسميه الآن منطقة الشرق الأوسط وقد ظلت الآراء مضطربة في الأصل المشترك لهذه اللغات حتى الآن.

على أن المراكز الأولى التي ترعرعت فيها اللغة العربية بعد تبلورها هي على الخصوص اليمن والحجاز. أما في اليمن، فكانت العربية أكثر اتصالا بالأكدية والحبشية من أي لغة أخرى[1] على أن الهجرات الجنوبية إلى الشمال والغرب جعلت عربية اليمن تؤثر إلى حد بعيد في هذه المناطق، وأما في الحجاز فقد كان هناك تقارب بين العربية والنبطية والعبرانية، وهكذا فإن هجرات القحطانيين واحتكاكهم بالعدنانيين ساعدت على تركيز لغة مشتركة للتفاهم وقرض الشعر، هذه اللغة التي أمكنها أن تطغى على الحميرية الصرف.

وما من شك في أن هجرات اليمنيين إلى الشام، وعدم وجود وحدة حكومية عربية، ورغبة العرب بوجه عام في الحفاظ على المقومات القبلية لم يكن من شأنه إلا أن يوسع دائرة اللغة العربية بما شملته من تعدد المصطلحات للمعنى الواحد. إذ كان لكثير من القبائل لهجات خاصة دون أن يكون التفاهم مع ذلك صعبا بينها. وإذا كنا نجهل متى نشأت العربية، فمن المعلوم لدينا أنه قد مر قرن على الأقل قبل ظهور النبي، وقبل أن تصل العربية إلى درجة الإتقان[2].

---

(1) حنا 1–21.

(2) لوبون 472.

ولم يقتصر العرب على شبه الجزيرة وحدها كموطن لسكناهم ومعيشتهم، بل انصرفت عناصر منهم إلى البلدان المجاورة لشبه الجزيرة قبل الإسلام ومن وقت طويل. ولما كانت هذه البلاد المجاورة نفسها موطنا لأمم سابقة بينها وبين العرب صلة شديدة القوة كالأنباط والأشوريين الكلدان، فقد سهل على المهاجرين من شبه الجزيرة الاستقرار بهذه البلاد، وكونوا في ظل الحكم الفارسي والروماني بعض الممالك التي اشتهر منها على الخصوص، مملكة الحيرة التي ازدهرت في القرن 5 ق.م. ومملكة غسان التي ازدهرت في القرن 6 ق.م.

فلم يكن العرب والحالة هذه، يعيشون كلهم منكمشين على أنفسهم في شبه الجزيرة، بل كانت لهم علاقة وطيدة بمدنية الفرس والرومان. وهذا ينطبق بالخصوص على سكان الحجاز، وعرب الشام والعراق.

ولقد كان لعرب الحجاز تجارة واسعة مع الفرس والرومان، أو على الأصح مع العراق والشام واحتكر التجارة منهم قريش خاصة، لأنهم كانوا يقطنون مكة التي تعتبر منذ زمن سحيق العاصمة الروحية للعرب.

والتجار يحتاجون إلى تعلم لغة البلاد أو الأمة التي لهم بها علاقة تجارية، ومن ثم كان لا بد أن تدخل ألفاظ كثيرة إلى العربية من الفارسية والرومانية. وهذه الألفاظ لا بد أن تكون ذات صلة بالحضارة ما دام كل من الرومان والفرس في عداد الأمم المتحضرة يومئذ، بل أرقاها علما ومدنية.

لذلك استقبلت العربية ألفاظا جديدة ومتعددة، من بينها أسماء بعض الثياب والأواني مما أوردته عدة مصادر، وعلى رأسها القرآن.

ولغة العرب ظلت ترتبط في الجاهلية إلى حد بعيد بالمحسوسات التي يقع عليها بصر العربي الذي إن أنشأ شعرا أو أدبا، فهو لا يتجاوز ذلك المحيط الضيق الذي عاش فيه، ولا يحلق بعيدا في الأجواء الإنسانية إلا بقدر ما يرد منه ذلك عفوا، كالذي نلاحظه في معلقة عمرو بن كلثوم.

ولكن الذي يثير انتباه الباحث، هو أن كل ما يرتبط بظواهر الطبيعة في حدود شبه الجزيرة، يمثل ثروة لغوية لا تقدر بثمن، فكل أنواع الصحاري

والأودية والحيوانات، وكل أجزاء الدواب والنباتات وغيرها من الكائنات التي عرفها الجاهلي في محيطه، استطاع بمنتهى اليسر أن يخلق لها اسما أو تعبيرا مناسبا، وإنك لواجد لبعض هذه الكائنات والمخلوقات وحتى المصنوعات أسماء عديدة تختلف في الغالب باختلاف لهجات القبائل، كأسماء المعارك والأسد والسيف.

وإذا كانت قريش زعيمة كل هذه القبائل من غير منازع، طالما كانت تتولى أمور الكعبة وتسيطر على تجارة الحجاز، فإن لهجتها استطاعت في النهاية أن تصهر كل هذه اللهجات لتخلق منها لهجة مشتركة، هي التي نسميها اليوم اللغة العربية. فقد كانت يومئذ لهجة، لأنها لم تكن ذات علم مكتوب. ومع ذلك لم تكن لغة قريش بقادرة على أن تقضي كليا على تعدد المصطلحات لنفس المعنى أو المدلول، ولئن كان هذا عيبا في الوقت الحاضر، فإنه كان شيئا عظيما يومئذ لأنه مكن الشعراء أن يفسحوا لأنفسهم المجال في اختيار الألفاظ على تعددها، كما انتهينا بواسطته إلى أن نميز بين بعض اللهجات القبلية. ومن الملاحظ أن كثيرا من القبائل كانت تنظر إلى الجانب المهمل أو غير المنظور في المدلولات فتحدث لها أسماء مخالفة[3]. فالسيف مثلا اسم أداة، ولكن لفظ الحسام له دلالة غير مجرد أداة، فهو يحسم أي يقطع وهذا نموذج لاختلاف اللهجات.

ولو أن الفرس أو الرومان احتلوا شبه الجزيرة، وطال احتلالهم لها، لربما كان للغة العربية في الجاهلية مصير آخر فالمغلوب كما يقرر ابن خلدون يقلد دائما لغة الغالب، ولكن العربية اكتفت منذ العهد العباسي باقتباس عدد من الألفاظ الفارسية واليونانية التي شملت العلوم وجوانب أخرى من الحضارة لم يكن للعرب بها عهد في الجاهلية، ولم يضر هذا الاقتباس اللغة العربية بحال، لأنه اقتباس علمي وحضاري وليس اقتباسا سياسيا إجباريا.

وكانت هناك بعض الميزات التي اختصت بها لهجات العرب غير قريش. وكان هؤلاء يحتكون بهم أثناء مواسم الحج، فما استحسنوه من لهجاتهم تكلموا به وما استقبحوه تركوه. وكان ضمن ما أخذ على هذه اللهجات من عيوب[4]:

(3) لوبون ص 9.

(4) المزهر 1 ص 221.

1 – الكشكشة وهي زيادة شين بعد كاف خطاب المؤنث (عليك، عليكش).

2 – الفحفحة في لغة هذيل، وهي جعل الحاء عينا.

3 – الشنشنة في لغة يمنية، وهي جعل الكاف شينا في جميع الحالات.

4 – العنعنة في بعض لهجات قيس وتميم، وهي جعل الهمزة في أول الكلمة عينا مثل أكرم (عكرم).

ومقابل ذلك نجد ألفاظا كثيرة دخلت العربية منذ العصر الجاهلي عن لغات مختلفة ترتبط اقتصاديا وسياسيا بحياة العرب أنفسهم. ومن هذه الألفاظ[5]:

1) في السنسكريتية: كافور – قرنفل – بهاء.

2) في الفارسية: ديباج – فالوذج – زنجبيل – صندل – سكرجة – طست – إبريق – طبق – خوان – سندس – سميذ – كوز – نرجس – وبعض الألفاظ الفارسية نجدها في القرآن الكريم (ابريق، زرابي، سندس إستبرق).

3) في العبرانية: حج – كاهن – عاشوراء – بيت.

4) في اليونانية: اسطرلاب – بطريق بطاقة – قسطل – ترياق.

5) في الحبشية : منبر – حواري – برهان – كفلين – مشكاة – هرج والثلاثة الأولى من استنتاج السيد جرجي زيدان[6].

فالعربية إذا، اعتنت بألفاظ كثيرة منذ العصر الجاهلي ولكنها ازدادت غنى في العصر العباسي كما هو معلوم.

(5) تاريخ آداب اللغة العربية 1، ص44–46، والمزهر 1 ص 275.

(6) مصدر سابق، ص 45.

ولم تكن ألفاظ الكلام العادي وحدها مصدرا لدراسة اللغة وتدوينها بل كانت هناك مصادر أساسية أخرى لعلها أهم، وهي القرآن والشعر والأمثال والقصص.

فأما القرآن ففضلا عن كونه أحدث تغييرا جذريا في التفكير العربي في جميع مناحي الحياة، فقد كان مصدرا عظيما للغة التي أغناها بمصطلحات كثيرة أو بأسلوب جديد على الأصح وكثير من هذه المصطلحات أو الأسلوب يرتبط ارتباطا وثيقا بالدين كالزكاة والميراث والصلاة والإيمان ومشتقاته.

وكان النبي يقدم هذا الأسلوب المنزل عليه في صورة وحي، كأخبار أو جواب عن أسئلة يثيرها العرب: (يسألونك عن الأهلة – يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه – ويسألونك ماذا ينفقون – يتساءلون عن النبإ العظيم...إلخ).

وإذ اتسم الدين بمنتهى البساطة في عهد النبي، فلم تثر أسئلة كثيرة لتأويل عدد من نصوص القرآن. فكان على الصحاب أن يأخذوا على أنفسهم ثقل هذه المسؤولية، فلم يقدم على لك إلا قليل منهم كعكرمة وابن عباس اللذين تصديا للجواب على كثير من الأسئلة التي أثارها المستفسرون.

وأثار الخلاف في قراءة القرآن مشكلة ظهور عدة روايات تنوقلت عن جماعة معينة من القراء واحتفظت الآيات بوجه عام بصورتها الحقيقية، وإنما كان الخلاف يتعلق بالحركات لا بجوهر اللفظ نفسه.

ومهما يكن من شيء فإن القرآن كان مرجعا أساسيا لرواة اللغة الذين اعتمدوه كنقطة استقرار واستنتاج، وقد حفظ عددا من الاستعمالات التي لم تعد اليوم جارية في الأسلوب العربي (إن هذان لساحران- قال رب ارجعون – والأرض فرشناها – فقد صغت قلوبكما – (والمقصود قلبان فقط) قال رب ارجعون ...إلخ.

وكل هذه الاستعمالات وغيرها كان يستشهد به للتدليل على صحة ما يقابله من غير القرآن.

ولم يحظ الحديث بمثل هذه الحظوة من حيث اعتباره مرجعا في اللغة لأن أحاديث كثيرة ضعفت أو نسبت كذبا إلى النبي. وكان لنشأة المذاهب الدينية والسياسية المختلفة، أثرها في خلق أحاديث لم تثبت صحة نسبتها للنبي، ومن ثم، اجتنب نقلة اللغة ورواتها الأخذ بالحديث فيما يهم الاستشهاد بصحيح اللغة وتبيان السالم منها والفاسد.

ومع ذلك فتوجد تراكيب مشهورة وردت قصدا أو ضمنا في أحاديث النبي حتى قيل أنها لم تسمع عن غيره من قبل، ومنها[7] مات حتف أنفه – الحرب خدعة – لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ولكنها أصبحت جارية الاستعمال فيما بعد.

وأما الشعر فمصدر بالغ الأهمية للغة، حتى قيل إنه لولا الشعر لضاع نصف اللغة، وهذا حكم صحيح إلى حد كبير.

وإنما ظل الشعر مصدر اللغة لسهولة حفظه وروايته، ولأنه لا يحتمل المكذوب والمدسوس مثلما يحتمله النثر، وإذا كان الشعر لم يسلم من التحريف والانتحال، فإن بعض الأدباء عمدوا إلى جمع كثير منه كتابة في وقت متأخر نسبيا كأبي تمام (الحماسة) والأصبهاني (الأغاني).

والذين تصدوا من جماع مواد اللغة للتأليف في هذا الباب عمدوا إلى الاستشهاد بالشعر كما فعل النحاة أيضا.

وهكذا استشهدوا بالشطر التالي على أن (عزب) تطلق على الذكر والأنثى:

يا من يدل عزبا على عزب

(7) مزهر ،1 ص 302. ويرى بشر فارس في "مباحث عربية" أن الحديث: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق على الرغم من شهرته، فهو غير مقطوع بحصته، واستند في ذلك إلى "الموطأ" الذي أورده بنص بعثت لأتمم حسن الأخلاق. وإذا فالرواة لم يعتمدوا على الحديث لمثل هذا السبب.

واستشهدوا في إخضاع الأسماء العجمية لأبنية كلام العرب بقول الأعشى:

وكسرى شهنشاه الذي سار ملكه

له ما أشتهى راح عتيـق وزنبـــق

وشهنشاه، اختصار لـ (شاهان شاه)[8].

كما استشهدوا في مخاطبة الواحد بلفظة التثنية بقول سويد بن كراع:

فان تزجراني يا بن عفان انزجر

وإن تدعاني احم عرضا ممنعـــا

وقس على هذه الأمثلة، وقد كان عباس يقول: إذا قرأتم شيئا من كتاب الله لم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، لأن الشعر ديوان العرب.

وأما الأمثال فتعتبر كذلك من مصادر اللغة، وللعرب منها الشيء الكثير، وهي ذات أهمية بالغة من حيث ارتباطها اجتماعيا وأدبيا بحياة العرب. كما أن كثيرا منها يصلح تطبيقه على غير العرب من الأمم والأفراد، كقولهم : (الحرب خدعة، ومعظم النار من مستصغر الشرر، ولا يطاع لقصير أمر) وقد أخذت كثير من دول أروبا عددا من الأمثال عن العرب[9].

على أن وراء كل مثل قصة حفظت كتب الأمثال كثيرا منها، وخصوصا، مجمع الأمثال للميداني (518 هـ).

والقصص تمثل بدورها نماذج صادقة من تفكير العرب وآدابهم، وأهميتها اللغوية تتمثل فيما شملته من غريب اللفظ وجمال الأسلوب وأحسن مرجع لها وكتاب الأغاني والبيان والتبيين للجاحظ والأمالي للقالي.

(8) مزهر 1 – 293 و (2) 484.

(9) لوبون ج 1، ص 484.

وموجز القول إن القرآن والشعر والأمثال والقصص قد أدت دورا بارزا في حفظ اللغة وتقويمها. إلا أن وقتا طويلا قد مر على المفكرين والباحثين قبل أن يهتدوا إلى الخطر الذي أصبح يهدد اللغة بعد فشو اللحن فيها بسبب الاختلاط بالأعاجم، وبعد العرب عن شبه الجزيرة التي نشأت فيها لغتهم.

ولست موردا هنا نماذج للأخطاء اللغوية والنحوية التي تفشت على ألسنة العرب في زمن مبكر من صدر الإسلام، فهذه النماذج ترددها مصادر كثيرة كالعقد الفريد والمزهر، وسأورد بعضها فيما بعد.

إلا أن الذي ينبغي تسجيله هنا هو أن جميع الدراسات اللغوية إنما كان سبب نشأتها ونموها القرآن قبل غيره.

ذلك أن ألفاظا كثيرة يرددها القرآن كانت مثار أسئلة المسلمين منذ عهد الرسول. وكان بين هذه الألفاظ ما هو غير عربي، ثم كان المعنى اللغوي يتعين فهمه قبل الإقدام على التأويل الشرعي فنشأ عن ذلك العناية بتفسير القرآن واختلفت الروايات في قراءة القرآن فنشأ عن ذلك علم القراءات التي كانت ذات ارتباط وثيق بالنحو. وأخيرا فإن وضع قواعد النحو كان ضروريا لحفظ آيات القرآن على صورتها الأصلية وبقطع النظر عن تعدد القراءات.

ولحسن الحظ فقد كان العرب يفطنون إلى ضرورة تدوين أكثر ما يمكن من الأشياء التي يخشون على ضياعها بسرعة، كما فعلوا في تدوين المصحف مثلا. وقد بدأوا في ذلك منذ أيام أبي بكر وهذا يدل على أن العرب كان فيهم عدد ممن يحسن الكتابة. بل يمكن أن يفهم من تعليم أسرى مكة لصبيان المدينة إثر وقعة بدر، أن الكتابة كانت تنتشر بمكة التي عرفتها قبل المدينة[10] ومن ثم فتدوين العلوم المتصلة بالقرآن قد سبق تدوين غيرها من العلوم.

وبالرغم من أن الكتابة كادت تكون مجهولة في باقي أجزاء شبه الجزيرة، فإن الألفاظ اللغوية التي حفظتها القصائد تشكل ثروة هائلة، ولقد كانت لغة

(10) P.10 Essai sur l'origine de l'écriture.

الشعر كما يقول بروكلمان[11] أشبه ما يكون بنهر جداوله هي اللهجات المحلية للقبائل، والتي اشتقت من العين نفسه.

وإذا كان للقرآن فضل في انتشار العربية بشكل لم تكد تعرفه لغة أخرى في العالم[12] فإن الموارد الأخرى التي استقى منها الرواة ودارسو اللغة الأولون قد أدت بدورها خدمة لا تنكر للعربية.

ولقد ظلت اللغة العربية على متانتها في عهد النبي على الخصوص وفي أيام الراشدين بوجه عام. وما سجل من الهفوات على بعض العرب آنذاك لم يكن شيئا يذكر بالقياس إلى ما بلغته العربية من فوضى فيما بعد. بل نلاحظ أن السود الذين دخلوا في الإسلام منذ الجاهلية وعهد النبي انسجموا بسهولة مع النطق العربي السليم كعنترة ذي الأم الإفريقية، وبلال الحبشي، وصهيب الذي اختطفه الروم صغيرا. بيد أن عدد هؤلاء كان قليلا لم يؤثر في سلامة اللسان العربي.

ولا ننس بعد هذا أن عددا كبيرا من ألفاظ الجاهلية قد أهمل استعماله ابتداء من صدر الإسلام، ثم فيما بعد. وهكذا فقد كانت أسماء الأيام في الجاهلية هي : السبت : يشيار، الأحد أول، الإثنين: أهون وأهود، الثلاثاء : جبار، الأربعاء : دبار، الخميس : مؤنس، الجمعة : عروبة، كما أهمل قولهم حببت فهو محبوب، وترك : مضنى وبقي امضنى[13] ...إلخ.

وإلى البصريين يرجع الفضل بطبيعة الحال في تحقيق اللغة وتمييز صحيحها من فاسدها وغريبها من مستعملها، وإن كان الكوفيون قد ساهموا بدورهم في هذا الميدان، إلا أن مؤلفاتهم على العموم لم يتح لها تأثير كبير من حيث الذيوع والانتشار.

مجلة "اللسان العربي" : العدد الثاني (2)، من الصفحة 40 إلى الصفحة 44. سنة النشر : 1965.

(11) P. de Linguistique, page 40
(12) P. de Linguistique, page 41

(13) المزهر 1 – 218.